الفصل الخامس

مؤرخونا القدامى ومواقفهم من بنى أمية

مراجعنا القديمة - بصورة عامة - لا تنصف بنى أمية ، بل إن المؤلفين - فى الغالب - لا يرضون عنهم ، ويرون أنهم ظلمة وجبابرة ، ويذهب البعض إلى اتهامهم بالكفر ، حتى أولئك الذين يذكرون فتوحهم وما أضافوه إلى أرض الإسلام ، وهو يزيد فى مجموعه على ما تم فتحه فى العصر الراشدى ، حتى هؤلاء يشتدون فى الحكم على بنى أمية ، ولا يخطر ببالهم أن يضعوا الحسنات إلى جانب العيوب ، والإيجابيات إلى جانب السلبيات ، ثم يكون حكمهم بعد ذلك على هذا الأساس ، ونحن في الحقيقة إذا وضعنا محاسن بنى أمية أمام عيوبهم ازداد قدرهم فى نظرنا ، فهم - دون شك - أكبر الأمم الفاتحة فى تاريخ الإسلام ، ولا نريد بذلك سعة الفتوحات فحسب ، بل نضيف إلى ذلك أن فتوح بنى أمية فى مجموعها هى أبقى الفتوحات (بعد فتوح الرسول صلوات الله عليه وأبى بكر وعمر وعثمان) وأبعدها أثراً فى اتساع نطاق العروبة والإسلام ، فقد فتح الغزنويون فى المشرق فتحاً ضاع ، والغالبية العظمى مما

فتح الأتراك العثمانيون فى الغرب ضاع ، وما انتشر من الإسلام فيما فتحوه أقل بكثير مما كنا نتوقع ، ولم يستعرب منه شىء طبعاً ، أما بنو أمية فكانوا عرباً فاتحين ، وقد نشروا الإسلام والعروبة فى كل ما فتحوا ، ولولا ظروف طارئة حالت بين استعراب إيران وردتهم إلى الفارسية لكان شرق الدولة الإسلامية كله اليوم عربياً ، كما كان الحال مع غربها ، وما اتصل بهذه الفتوح فيما بعد من بلاد إفريقية الغربية والاستوائية ، ثم إن العروبة والإسلام لم يخسرا مما فتح بنو أمية إلا الأندلس ، وكانت لذلك ظروفه التى لا يسأل عنها بنو أمية ، وهم يظلون ـ رغم ما حدث للأندلس ـ أعظم الفاتحين العرب والمسلمين على الإطلاق .

غير أن الفضل العظيم لا يدخل فى الحساب عند قدماء مؤرخينا ؛ لأن غالبية هؤلاء المؤرخين مغرضون قبل أن يمسكوا بالقلم ، والغرض هنا عاطفى عام ، فهم كارهون لبنى أمية لما فعلوه برجال من العلويين ، ذرية على بن أبى طالب ـ رضى الله عنه ـ وإذا نحن استبعدنا ضرورات التجرد العلمى قلنا إنهم محقون عاطفياً ، فهذه ذرية المصطفى ـ صلوات الله عليه ـ ونحن لا نطيق أن يمس أحد رسولنا وذريته بأدنى شىء ، ولكننا عندما ندخل دائرة الواقع التاريخى تخف فى نظرنا بشاعة هذه الجرائم ، فإن الخلافة خرجت من أواخر عصر عثمان عن نطاقها الدينى الإسلامى الذى وضعها فيه أبو بكر وعمر ، ومعاوية ـ

إلى حد ما ـ كان محقاً عندما طلب معاقبة قاتلى عثمان ، فهذه جريمة بشعة ، ولا يمكن ـ من الناحية الشرعية الإسلامية ـ أن تمر هكذا ، دون أى تحقيق ، ولم يكن المطلوب أن يسلمهم الخليفة لمعاوية ، بل كان المطلوب أن تضع الدولة يدها عليهم وتعاقبهم . وهذه مسئولية رئيسية من مسئوليات الحكم فى الإسلام ، ولكن الدولة عندما تولى على لم تفكر فى هذا الموضوع بالصورة التى أرادها بنو أمية ، وكان رأى على هو أن يقضى أولاً على خروج الزبير وطلحة عليه ، بل هى حتى لم تضعه موضع العناية ، ومادامت الدولة قد تراجعت ـ ولو مؤقتاً ـ عن واجبها فى هذه القضية فقد أعطت أولياء القتيل الحق فى أن يطالبوا بدمه ، وهذه المطالبة هى الباب الذى دخل منه بنو أمية باب السياسة .

وأنا ـ بصفتى مسلماً ومؤرخاً معاً ـ أسأل نفسى دائماً : لماذا لم يفتح عَلِيٌّ باب التحقيق فى أمر قتل عثمان ؟ والسؤال هنا يصدر عن قلب يحب علياً وآله ؛ لأن الصحابة كانوا إذ ذاك موجودين وقادرين على القيام بهذا التحقيق . ولم يكن من العسير العثور على قتلة عثمان ، فهذه جريمة خطيرة ارتكبت فى وضح النهار ، وكان لابد من تكليف جماعة من أهل الشورى التحقيق فى الأمر ، وحتى إذا لم تضع هذه الجماعة يدها على القتلة فإنها تكون قد قامت بواجبها على الأقل ، نحن لا نرى ما يمنع من أن يشترك معاوية أو من ينيبه عن نفسه فى لجنة

التحقيق حتى يرى أن الأمر جاد ، فقد كان معاوية نفسه صحابياً ، وما نظنه كان يفكر فى البداية فى الخلافة ، ولكن تطور الأحداث فى عصر على وتصرف على نفسه أدى إلى ذلك ، وسترى أن النصوص هنا مضطربة جداً ، وأن الوصول إلى حقيقة ما جرى من خلالها يكاد يكون مستحيلاً ، ونلاحظ منذ البداية أن علياً لم يعط الشورى حقها الذى كان لها أيام الرسول ﷺ وأبى بكر وعمر ، وأنه كان يتصرف فى الغالب من وحى نفسه ، ويبدو أن خروج طلحة والزبير وعائشة عليه قد فاجأه وساءه وأضعف مركزه منذ البداية ، فرأى أن يقضى عليه قبل كل شىء ، وسنروى له كلاماً واضحاً فى هذا المعنى .

وسنرى أن هذه العوامل كلها ، وخروج على من المدينة فى طلب طلحة والزبير وعائشة كان من أكبر أسباب ضعف مركزه؛ لأن المدينة كانت عاصمة دولة الإسلام ، ولها جلالها الذى كان جديراً بأن يجعل الأمة كلها تلتف حول على ، كما سبق أن التفت حول أبى بكر عند الردة ، وهو نفسه أحس بذلك عندما استقر فى الكوفة ووجد نفسه وسط رجال لم يعرفوا قدره ؛ لأن المسلمين فيها كانوا من المتأخرين ممن لم يعرفوا قدر الصحابة أو عظم مكانتهم ، وقد رأينا ما فعلوه فى عثمان والكوفة .

على أى حال لم تكن منذ ميلادها إلى زوالها مدينة بالمعنى الصحيح للمدينة ، إنما هى كانت محطة تنزل فيها القبائل المهاجرة ريثما تعرف إلى أين تهاجر ، والموجودون فيها اليوم

قد لا يكونون فيها غداً : رحلوا إلى مهاجرهم ولن يعودوا إليها ، وفى الغالب يحل فيها غيرهم من نفس القبائل ، ولا يحس الإنسان بهذا التغير الحاسم ، وقد شكا على بن أبى طالب من نتائج هذه الظاهرة ، وأما أهل الكوفة الباقون فيها بصورة دائمة فكانوا أهل الخدمات من الصناع والتجار ممن لا تستغنى عنهم المدن ، وربما كان سبب عدم تنبه على بن أبى طالب إلى هذه الحقيقة هو أنه كان عظيم الثقة فى نفسه ، ثم إنه كان محاطاً دائماً برجال من أنصاره المخلصين ، ولكنه وقع شيئاً فشيئاً - وخاصة بعد معركة الجمل - فى أيدى رجال من محترفى السياسة من زعماء البدو القبليين من أمثال القعقاع بن عمرو ، وسُعر بن مالك ، وهند بن عمرو ، والهيثم بن شهاب ، والحارث بن سريج ، ومن إليهم ممن لم يعرفوا قدره أبداً ، وهؤلاء جميعاً لم ينفعوه فى شىء بل أضروا به ضرراً بليغاً ، ومن هؤلاء ظهر الخوارج ممن حسبوا أنفسهم أصدق تديناً من على .

ولدينا عن الأحداث التى وقعت خلال هذه الفترة الخطيرة من تاريخ الإسلام نصوص كثيرة جداً ، بعضها لا يستحق الثقة مثل الإمامة والسياسة للدينورى ، ومن أسف أن هذه المراجع كانت عظيمة الأثر فى الصورة التاريخية فيما بعد ، والسبب الأساسى فى ذلك هو أن نصوص المرجعين المطولين الجديرين بالثقة هنا ، وهما الطبرى (ج٤ ص ٤٥٠ وما بعدها) ومعركة صفين لنصر بن مزاحم المنقرى مطولة جداً ، وهى متضاربة

ومتناقضة ، ومن العسير علينا ـ كما سنرى ـ أن نخرج منها بخط واضح لسير الحوادث ...

وقد قرأت هذه النصوص مرة بعد أخرى ، وفى فترات مختلفة ، فلم أخرج بنتيجة ، ورغم الصبر وطول البال وإخلاء نفسى فى بعض المناسبات من كل عاطفة ـ وخاصة عاطفتى الهاشمية ومحبتى المتأصلة فى نفسى لعلى بن أبى طالب ـ فلم ينفعنى ذلك فى كثير ، وظللت إلى يومنا هذا غريباً عن الحوادث، وظلت هى غريبة عنى ، وإليك الخبر التالى الذى يرويه الطبرى عن رواته (٤ / ٤٥٥) : كتب إلى السرى عن شعيب عن سيف (ابن عمر) عن محمد وطلحة قالا : بلغ علياً الخبر وهو بالمدينة باجتماعهم (يريد طلحة والزبير والسيدة عائشة) إلى البصرة ، وبالذى اجتمع عليه ملؤهم (من قتال على) وبلغه قول عائشة ، وخرج على يبادرهم فى تعبئته التى كان تعبى بها إلى الشام ، وخرج معه من نشط من الكوفيين والبصريين متخففين فى سبعمائة رجل ، وهو يرجو أن يدركهم فيحول بينهم وبين الخروج ، فلقيه عبد الله بن سلام فأخذ بعنانه ، وقال : يا أمير المؤمنين ، لا تخرج منها ، فوالله لئن خرجت منها لا ترجع إليها ولا يعود إليها سلطان المسلمين أبداً ، فسبوه ، فقال (على رضى الله عنه) : دعوا الرجل ، فنعم الرجل من أصحاب رسول الله ﷺ ، وسار حتى انتهى إلى الرَّبْذة فبلغه ممرهم (يريد أنهم مروا بالربذة وساروا فى الطريق إلى العراق) .

وهذا كلام يضم أشياء لم نسمع بها من قبل ؛ فإن عليا ـ كما نرى من الخبر ـ كان يريد أول الأمر الخروج إلى الشام ، وهذا ـ فيما نرى ـ كان الطريق الأمثل له ، فقد رفض معاوية الطاعة له، وكان لابد من القضاء عليه بأسرع ما يمكن حتى تنتهى هذه الفتنة . وهذا عبد الله بن سلام ـ وهو من خيرة الصحابة ـ ينصح عليا بألا يترك المدينة ، ويقول : إنه إذا خرج منها فلن يعود إليها ، ولن يعود إليها سلطان من المسلمين أبداً ، وهذا أيضاً كان رأياً صائباً ، وكان من الممكن لعلى ـ بصفته أمير المؤمنين ـ أن يبعث إلى الشام من قواده بقوة ضاربة حاسمة فتقضى على معاوية فى أقل وقت ممكن ، ولكن علياً لم يسمع لكلام عبد الله بن سلام ، ولابد أنه كان هناك كثيرون آخرون على رأيه ، وإنما رأى أن يتبع طلحة والزبير وعائشة ؛ لكى يقضى عليهم ، بل لكى يردهم عن الخروج ، ومن هذه الفكرة أتاه بلاء عظيم ، ثم إننا نرى أن القوم الذين أرادوا أن يأخذوا عليا إلى الكوفة سبوا عبد الله بن سلام ، فكأنهم كانوا أصحاب أغراض من وراء خروج على إلى الكوفة ، ولكن أغرب شىء في تصرف على ـ رضى الله عنه ـ هو عدم تفكيره فى الكلام الحكيم الذى قاله عبد الله بن سلام ، وكأنه كان يتصور أنه لا يلبث أن يأخذ طلحة والزبير وعائشة ويعيدهم إلى المدينة ثم يفرغ لمعاوية .

ويأتينا الطبرى بعد ذلك بخبر غريب يضم فقرة نحن

جديرون بأن نطيل التأمل فيها . والطبرى يقول هنا .. رواية عن رواته ورداً على أسئلة وجهها إليه اثنان من أهل الكوفة خرجا للعمرة فبلغهما مقتل عثمان . ولقيا عليا فى الربذة فوجها إليه بعض الأسئلة (سيرد ذكرها فى الإجابة) فقال على : « أى بنى ، أما قولك : لو خرجت من المدينة حين أحيط بعثمان فوالله لقد أحيط بنا كما أحيط به ، أما قولك : لا تبايع حتى تأتى بيعة الأمصار فإن الأمر أمر أهل المدينة ، وكرهنا أن يضيع هذا الأمر ، وأما قولك حين خرج طلحة والزبير (أى لماذا خرجت فى طلبهما) فإن ذلك كان وهنا على أهل الإسلام ، ووالله مازلت مقهوراً مذ وليت منقوصاً لا أصل إلى شىء مما ينبغى ، أما قولك: اجلس فى بيتك فكيف لى بمن قد لزمنى أو من تريدنى ؟ (يريد من تريدنى أن أكون ؟) أتريدنى أن أكون مثل الضبع ويقال دياب دياب (أى تنادى لتخرج من مخبئها) ليست ها هنا حتى يحل عرقوباها ثم تخرج ، وإذا لم أنظر فيما لزمنى من هذا الأمر ويعنينى فمن ينظر فيه ؟ فكف عنك أى بنى » .

وهذا كلام ما قرأته إلا زاد حبى لعلى بن أبى طالب وحزنى على ما أصابه ؛ فقد كان والله رجلاً على إيمان بالغ وصدق عميق . ولكن يبدو أنه لم يكن يثق كثيراً فيمن معه ، وربما كان أفضل له لو وثق . وهذه الثقة كانت أمراً يحتاج إلى سياسة ، وعلى الذى عانى الكثير- كما رأينا - منذ تولى ، كان يريد أن يثبت مكانه دون اللجوء إلى السياسة ، وكان أفضل لو لجأ إلى

السياسة فى تلك المعركة التى خاضها مع معاوية ورجاله، وكانوا أهل سياسة قبل أى شىء آخر .

ولو أنه أقام فى المدينة وتصرف منها ـ كما قال عبد الله بن سلام ـ لأتته الجنود من كل مكان ، بدلاً من أن يذهب هو إليها ، فإن مقام رئيس الدولة فى عاصمتها يخلع عليه مهابة وجلالاً وقوة ، والأخبار تدل على أن قبائل العرب بدأت تقبل على عَلِيٍّ عندما قرر الخروج لحرب خصومه ، فقد روى نصر بن مزاحم المنقرى أن علياً عندما مر بالربذة ـ فى طريقه إلى الكوفة ـ أتته جماعة من طىء ، فقيل لعلى : هذه جماعة من طىء منهم من يريد الخروج معك ومنهم من يريد التسليم عليك ، قال : جزى الله كلا خيراً ، وفضل الله الجاهدين على القاعدين أجراً عظيماً ، ثم دخلوا عليه فقال على : ما شهدتمونا به ؟ قالوا : شهدناك بكل ما تحب ، قال : جزاكم الله خيراً : فقد أسلمتم طائعين ، وقاتلتم المرتدين . ووافيتم بصدقاتكم المسلمين . فنهض سعيد ابن عبيد الطائى فقال: يا أمير المؤمنين . إن من الناس من يعبر لسانه عما فى قلبه ، وإنى ـ والله ـ ما كل ما أجد فى منه يعبر عنه لسانى ، وسأجهد وبالله التوفيق ، أما أنا فسأنصح لك فى السر والعلانية ، وأقاتل عدوك فى كل موطن . وأرى لك من الحق مالا أراه لأحد من أهل زمانك ؛ لفضلك وقرابتك ، قال : رحمك الله ! قد أدى لسانك عما يجن ضميرك ، فقتل معه بصفين. رحمه الله .

وبعد قليل نقرأ عند الطبرى أن قبيلة أسد هى الأخرى عرضت أن تسير مع على . قال الطبرى راوياً عن أصوله : فلما نزل بفيد (فى منتصف الطريق من المدينة إلى الكوفة وفى محاذاة المدينة) أتته أسد وطىء فعرضوا عليه أنفسهم ، فقال : فى المهاجرين كفاية ، والسؤال الآن : لماذا رفض على أن تسير معه طىء وأسد ؟ ولو أنه أرسل إلى اليمن وغيرها لأتته ، فقد كان مركزه عظيماً جداً فى عالم الإسلام ، ولم يكن فى أمة الإسلام من يعدله بل يقاربه ، ولو أنه قر فى المدينة وقاد معركته منها لكان النصر حليفه دون شك . ثم لماذا قال : فى المهاجرين كفاية ؟ وأين الأنصار ، وهم أعز رجاله وأحب الناس فيه ؟ ولكنه كان يسير بالفعل فى طريق مجهول لكثيرين من معاصريه ، قال الطبرى رواية عن أصوله : ولما أراد عَلىٌ الخروج من الربذة إلى البصرة قام إليه ابن لرفاعة بن رافع فقال : يا أمير المؤمنين ، أى شىء تريد ؟ وإلى أين تذهب بنا ؟ قال: أما الذى نريد وننوى فالإصلاح منا إن قبلوا منا وأجابونا . قال : فإن لم يجيبوا إليه ؟ قال : ندعهم بعذرهم ونعطيهم الحق ونصبر . قال : فإن لم يرضوا ؟ قال : ندعهم ما تركونا . قال : فإن لم يتركونا ؟ قال : امتنعنا منهم . قال : فنعم .

وقام الحجاج بن غزية الأنصارى فقال : لأرضينك بالفعل كما أرضيتنى بالقول ، وقال :

دراكها دراكها قبل الفوت

(أى أدركوها قبل أن تخرج من أيديكم) .

وانفر بنا واسم بنا نحو الصوت

لا وألت نفسى إن هبت الموت

(ومعنى : لا وألت نفسى : لاسلمت نفسى) .

والله لأنصرن الله عز وجل كما سمانا أنصاراً .

وهذا كله كلام غير مفهوم . بل إننا إذا فهمنا منه شيئاً فهو أن علياً لم يكن فى مسيره هذا واضحاً لا لنفسه ولا للآخرين . ثم إننا نسأل : ما الذى أراد على بقوله : فالإصلاح إن قبلوا منا وأجابونا إليه ؟ هل يريد الصلح ؟ وعندما يقال له : فإن لم يتركونا ؟ قال : امتنعنا منهم ، فيقول الرجل : فنعم إذن ، فإذا كان على مستعدًا لأن يمتنع عن طلحة والزبير وعائشة إذا لم يتركوه فلماذا لم يكتب إليهم بذلك وهو مستقر فى دار خلافته بالمدينة وينتظر رأيهم ؟

وبقية كلام الطبرى تدل على أن الناس فى كل مكان كانوا مع على ، وأن الجميع كانوا معترفين به أميراً للمؤمنين ، وإن كان الكثيرون منهم يطالبون عليا بأن يخرج قتلة عثمان ، وكان هو مستعدًا لذلك ، ولكنه ـ لأمر ما ـ كان يرى أن أول ما ينبغى عليه هو القضاء على فتنة الزبير بن العوام وطلحة بن عبيد الله

وعائشة بنت أبى بكر ـ رضى الله عنهم ـ ولا ندرى ما الذى كان يخافه منهم والناس كلهم معه إلا معاوية ؟ حتى معاوية نراه صامتاً تماماً فى هذه المرحلة من الخلاف ، وما نظن أنه صمت وثبت مكانه إلا أنه خاف على نفسه وعلى بنى أمية بعد أن عزله على عن الشام وكل ولاة عثمان على غير الشام ، والنصوص تقول : إن أمر الزبير وطلحة وعائشة لم يكن بشىء ، وإن عليا لو قر مكانه فى المدينة واجتهد فى القضاء على معاوية لانتهى الأمر .

بل إننا نرى من حديث الطبرى ونصر بن مزاحم أن خروج على إلى الكوفة والبصرة جعل الناس يتصورون أنهم أمام فتنة حقة ، ثم إنه عندما قرر المسير لم يشاور أحداً ولا هو عنى بأن يفهم الناس سبب مسيره فدخل ـ هو والمسلمون ـ فى فتنة خطيرة حقاً .

★★★